غادة بابل

La Belle de Babylone.

٨

لم تجد نفعا الرقى والطلاسم والتعازيم وندامة الاب بل كانت حال المريضة تزداد حرجا واصبحت على قاب قوسين من النزع فارتأى اهلها ان ينقلوها من البيت الى الخارج ويعرضوها على انظار المارة لكي يصف لها من يراها تعويذة فعالة او دواء ناجعا مجربا فحملوها على فراشها ووضعوها عنـد باب دارها . فتكاكأ عليها المارة واخذ كل واحد يصف لها وصفة من تعاويذ وعقاقير جربها في حادث حدث له في زمن مضى (١) ثم يأتي غيرهم ويسفهون آراء من سبقهم ويؤكدون ان رقية الاله الفلاني هي برء الساعة مع العقاقير التي يسردون اسماءها .

ثم اتى واحد واخبرهم ان « آسو » (٢) اتى من مصر وهو عالم بمداواة المرضى جدير ان يشفي اعضل الامراض (٣) .

عمـل الاهل كل الوصفات والرقى واستقدموا « الاسو » فلم تنجع في المريضة حيلة بل اشتـدت على حرآء الالام وارتفعت حرارة الحمى فاسلمت الروح بعد غياب الشمس .

اطلقت النائحات اصوات الويل والثبور وارسلت النساء شعور رؤوسهن

(١) هيرودوتس ١:١٩٧:

(٢) كان البابليون يطلقون كلمة « آسو » على الطبيب وهي كلمة « الآسي » العربية وهما من اصل واحد ولهما معنى واحد .

(٣) كان يذهب الاطباء من بابل ومصر الى بعض الاقطار او من احد هذين القطرين الى الاخر . لان بابل ومصر كانتا منبت الحضارة البائدة . وجاء في اخبار الحثيين . ان طبيبا وساحرا ذهبا من بابل الى بلاد الحثيين . وهكذا الطب آنئذ والسحر صنوين . راجع
L. W. King : A History of Babylon: 240, No 1.

والقين التراب والرماد على هاماتهن ولطمن الخدود بالايدي وخمشنها بالاظافير . واشترك بهذا المأتم العبيد والعبدات ثم اتت الجارات وانضممن الى المحفل (١).

اشتغل الاهل والاقرباء والجارات بالمراثي واللطم وعهدوا بجثة حترآء الى نساء دأبهن تجهيز الموتى والسهر على اجسامهم قبل الدفن . فدهنها بزيت معطر والبسنها اجمل ثيابها وافخرها وزينها بالحلى الغالية الثمينة . ووضعن قرطي ذهب في اذنيها وقلادة نفيسة في عنقها هي خرز من العقيق واللازورد والذهب منظومة في سلك. واساور في معصميها وخواتم وحلقات في اصابعها وحجلين في رجليها ومشطا من ذهب في شعرها وحمرن وجنتيها بالحمرة ودهنها بالدهون وصبغن اهدابها واطراف عينيها بالزرقة . ثم اضجعنها على فراش وثير وأطبقن خراعيها على صدرها. ثم نصبن مذبحا عند رأسها لقرابين الماء والبخور والحلويات واخفين تمثالين الواحد عند رأسها والاخر عند قدميها يمثل احدهما صورة « ايا» والاخر شبيها «بأيا» وعلى كل منهما جلد سمكة. وقد مدا ايديهما على جثة حترآء. ووضعن ثلاثة تماثيل اخرى في غرفة المائتة احدهما بصورة انسان والاثنان الاخران رأسهما رأس اسد وجسدهما جسد انسان .

والغاية من هذه التماثيل منع الارواح الخبيثة من دخول غرفة الميتة وتقمصها بصورة عفريت يمتص بعدئذ دم الاحياء .

وتوضع كذلك تماثيل الالهة فوق سطح البيت لمنع تلك الارواح الشريرة من الهبوط من السقف .

وتقام الصلوات والادعية استدعاء للارواح الصالحة للسهر على جثة المتوفاة(2).

اهتم بعض اقاربها بانتقاء تربة شريفة يودعونها جثمانها . فمنهم من ارتأى نقله الى اورك . تلك المدينة المقدسة في جنوبي بابل التي تنقل الى مقابرها اجسام الموتى من جميع المدن البابلية للتبرك بقداسة ثراها لانها مدينة العلم والدين

(١) كثيرا ما يرى القارئ بعض العادات في هذه الرواية تضاهي العادات الشائعة اليوم في العراق او عند بعض الطبقات من سكان هذه الديار فلا نظن انها لم تكن عند البابليين بل ان كل ما يقرأ هنا مستند الى ما كان جاريا عندهم .

(2) G. Maspero: Au Temps de Ramsès et d' Assourbanipal. 270 - 71.

والكهنة والملوك (١) .

ومنهم من ارتأى دفنها في مقبرة البيت القديمة في دار السكنى عينها حيث قبر بعض اجدادها في زمان كان البابليون يدفنون موتاهم في بيوتهم.

إلّا ان اباها لم يوافق على الرأيين بل رغب في دفنها في المدفن الذي قبرت فيه امها لتكون الى جانب تلك التي حنت عليها في صغرها .

حملوا الجنازة من بيتها بين النوح والبكاء واللطم تتقدمها النائحات والعازفات ويتبعها جوق منهما وكان معها اهلها واصدقاؤهم ومعارفهم مرتدين بثياب الحداد من نسيج غليظ كمد ليس فيه ثنايا ولا طيات بل يشبه كيسا . واخذوها الى احدى المقابر في ضواحي المدينة ووضعوها في تابوت على هيئة حب وهو متخذ من الطين المشوي من قطعتين . واحدى القطعتين هي غطاء الحب . ولحموا القطعتين بالقار وفي طرف الحب او التابوت ثقب صغير تخرج منه الروائح التي تنبعث من الجثة عند انحلالها .

وكانت توضع الجثة في التابوت وضعا يوافق معتقداتهم الدينية فالقوا الرأس على آجرة لفوها بقطعة مطرزة من النسيج وفيها اهداب ذهبية . وتركوا التابوت في مشكاة معقودة في جدار القبر وجعلوا في القبر حلاها وادوات الزينة وعلب الحمرة والخضاب واصباغ الوجه واواني العطر واقداحا واكوابا وبعض امتعة البيت وشيئا من الطعام الذي كانت مولعة به في حياتها وتمرا وجرة ماء وازهارا ومسرجة. وبعض تماثيل ونقوش محفورة على حجر وصخر وعلى قطع صغيرة من البلور الصخري والجزع واليصب وحجر الحية وحجر الدم والعقيق والباور . فكانت هذه الامور تقدمات خالدة للالهة تفوق التقدمات البالية منزلة وقدرا او تعاويذ تصد الارواح الشريرة عن اذى الراقد او الراقدة .

رجع المشيعون واخذ بعضهم يتحدث عن سرعة زوال الحياة وعن انتقال تلك الشابة الحسناء الى «الارض التي لا دعوة منها» الى « قعر الظلمة » الى « دار البلى» الى «مملكة الاموات العظيمة» التي تسود فيها «اللات» ملكة الموتى. الى الـ «ارلو»

(٢) Loftus: Chaldéa & Susiana. و يوسف غنيمة : محاضرات في تاريخ مدن العراق ص ٩٣

ذي السبعة الابواب للداخلين فيه وعلى تلك الابواب حراس يمنعون من يحاول الخروج منه لاينفذ اليه نور الشمس وانما تبعث منهم احيانا الاهة الموتى «اللات» بعثة خاصة الى الارض لاذى الاحياء لايأكلون في الارالو إلّا الحما المسنون ولايلبسون إلّا ريش طيور الليل الادكن ومامكة الموتى «اللات» او ارشكيجل إلّا الاهة الانتقام ، إلّا ربة البطش والفتك بالاحياء ، إلّا سيدة مطلقة عنان القسوة والشكاسة والشراسة تعامل الموتى معاملة فظة مهما كانت سيرتهم في الحياة صالحة اوطالحة فهم في عينها سواء ، تكيل لهم العذاب جزافا وبيبهم قبح منظرها وسماجة تمثيلها وهي امرأة زباء مشوهة الخلقة متخاذلة الاعضاء وجهها وجه لبوءة كاشرة عن انيابها . ولها اجنحة واكف طائر جارح . وتهز بكل من يديها حية عظيمة كالحربة تطعن بها عدوها وتسمه بلا رأفة . وولداها اسدان توضعهما من جسمها . تسير في مملكتها وقوفا او ركوعا على ظهر حصان يرزح تحت ثقلها وتسحقه سحقا وفي بعض الاوقات تذهب بنفسها لتفتقد النهر المنحدر من عالم الاحياء فتركب وحصانها مركبا جنبيا يبحر بلاشراع و لامجداف ينتهي مقدمه بمنقار طائر وكوثله برأس تور .

فهذه الالاهة المسيطرة على الكائنات مهيمنة في دولتها مستقلة في ادارتها لايتدخل في شؤونها اي قدير كان ، حتى ان الالهة ان شاءت الدخول الى تلك المملكة تخنع لاوامر ملكتها وتعدهم من رعاياها الاموات. اما قرينها نرجل فدونها في السلطة في تلك المملكة. ولها جند ينفذون اوامرها ومنهم « الطاعون » و«الحمى» وغيرهما . مسكينة حترآ. لقد قضت ايامها ودخلت أقطار الهاوية فهل لها ان ترضى « اللات » لتمنحها جرعة ماء من « ينبوع الحياة » ذلك الينبوع الواقع عند عتبة الارالو الذي يعيد ماؤه الحياة الى الموتى . ولكن كيف الوصول اليه وحراسته موكولة الى ارواح الارض السبع — هي سبع — سبع هي — في حفرة الهاوية هي سبع لاهي ذكور ولاهي أناث ، لكنها تنتشر كالتيارات — لاتتخذ نساء ولا تلد اولادا ابدا . لاتعرف الرأفة والاحسان — لاتسمع الصلوات ولا الادعية — تكثر الحقد في الجبال هي اعداء « ايا » هي رسل الموت وعمال « اللات » .

هذه هي الافكار والمعتقدات التي كان يرددها المشيعون الاغرار إلّا ان المفكرين منهم كانوا قد ارتقوا الى تصور جنة تجري فيها الانهار وتظللها الاشجار يدخل فيها الصالحون والصالحات وهي مثوى الالهة في قمة «جبل العالم» لابل ان الابرار والفضلاء يستقبلهم الالهة في جنتهم ويؤلهونهم . وبهذا الرجاء كان ابو حترآء يعزي نفسه ويتوقع رؤية ابنته في تلك الجنة على قمة «جبل العالم» ! (١) .

يوسف غنيمة

اصل السدلى او السدير Sidillâ ou Sédir.

في تاج العروس في مادة س د ل : السدلى كزمكى ، معرب . واصله بالفارسية سه دله كانه ثلاثة بيوت كالحاري بكمين . كما في العباب واللسان . اه. فكتب الواقف على طبعه : قوله « كالحاري » كذا بخطه كاللسان فظهر من قوله هذا انه لم يفهم كالحاري وصاحب « البستان » لم يذكر هذه الكلمة في معجمه ولاندري السبب مع ان الذين نقل عنهم ذكروها وانلم يشرحوها .

قلنا : معنى الحاري : الثوب المصنوع في الحيرة ، وهي نسبة شاذة الى الحيرة ، المدينة المشهورة في العراق . واما الكلمتان الفارسيتان فليستا « سه دله » بل « سه دير » ومعناهما البيوت الثلاثة فمعنى « سه » ثلاثة ، ومعنى « دير » البيت المعقود عليه قبة او جنبذة كما يقول بعض رزاة السلف نقلا عن الفرس المنقرضين ، ولهذا نرى بعض الاقدمين عرب « السدلى » بصورة ثانية وهي « السدير » . ومنه اسم القصر الذي بناه في الحيرة آل المنذر وكان فيه ثلاث قبب متداخلات وقد غلط صاحب التاج في مادة سدر اذ يقول انه معرب عن « سه دره » اي ذو ثلاثة ابواب . والصواب ما اوردناه نقلا عن المحققين .

وفي فرصة اخرى ، نذكر كيفية ذلك البناء الشهير .

(1) M. Jastrow : Hebrew & Babylonian Traditions : pp 196 — 253 .

M. Jastrow : The Civilization of Babylonia & Assyria - P 280.

G. Maspero : Au Temps de Ramsès et d' Assourbanipal. pp. 279 - 282 .

Z. A. Ragozin : Chaldéa : 154 - 157 & 326 - 330.